علي ومسيرة الحضارة الإسلامية /٣

(الصفحات ٥١- ٦٠)

ملخّص

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) واصل مسيرة الإحياء بعد رسول الله(ص)، وبذلك صان المسيرة الحضارية الإسلامية من الجمود والركود. نهج البلاغة وثيقة هامة في حقل الإحياء والاستنهاض الحضاري، سواء في رسائله أو خطبه أو كلماته القصار. وهذه وقفات عند كلماته القصار.

قال عليه السلام:« مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ».

يضع الإمام معيارًا هامًا لقائد المسيرة، مهما كان حجم هذه المسيرة.. وهو أنه لابدّ أن يكون سبّاقًا إلى كل توجّه تكاملي، وبذلك يستطيع أن يضخّ طاقة الحركة فيمن يقودهم وأن يهديهم الطريق المنشود.

وأن «يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره» إذ فاقد الشيء لا يعطيه، وإصلاح المحتوى الداخلي مقدمة ضرورية لإصلاح المجتمع.

و«أن يكون تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه» وإلاّ كان مصداقًا لمن لامهم القرآن الكريم بقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ] .

معلّم النفس أحق بالإجلال من معلم الناس، لأن تعليم النفس هو الجهاد الأكبر، هو تصعيد الإرادة وضبط الشهوات، وتوطين النفس على مواصلة السير نحو الكمال، عندئذ يكون بسلوكه معلمًا للناس أيضًا.

ما حدث من انتكاس في المسيرة الحضارية الإسلامية يعود في معظمه إلى غياب القادة المبدئيين. غياب القادة الذين علّموا أنفسهم وضبطوا سلوكهم، ولم يكن دافعهم في حركتهم غرائزهم وشهواتهم وأهواءهم.

* * *

وقال عليه السلام: « **إِنَّ الأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا**» .

وهذا درس في فهم سنن الكون والحياة.. وإشارة إلى أن الأمور (معالم المسيرة الحياتية) تتحرك وفق سنن ثابتة، وإذا التبست هذه الأمور، فإن ما تحكّم فيها في السنن في الماضي سيجري في الحاضر والمستقبل.

* * *

وَ مِنْ خَبَرِ ضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ الضَّبَائِيِّ عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ ومَسْأَلَتِهِ لَهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) وقَالَ فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ وهُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ ويَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ. ويقول: « **يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي أَبِيَّ تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ لا حَانَ حِينُكِ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لا حَاجَةَ لِي فِيكِ قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً لا رَجْعَةَ فِيهَا فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ وخَطَرُكِ يَسِيرٌ وأَمَلُكِ حَقِيرٌ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وطُولِ الطَّرِيقِ وبُعْدِ السَّفَرِ وعَظِيمِ الْمَوْرِدِ**»

هذا النصّ يتضمن:

التحرر من الانشداد إلى الأهداف الدنيوية.. أي الأهداف الصغيرة التي تصدّ الإنسان

عن التوجه إلى الأهداف الكبرى.

ويعبّر عن ذلك بأسلوب خطابي رائع للدنيا فيه تكرار للمخاطَب: «يا دنيا يا دنيا» وكأنه يريد أن يقرع أسماعها بخطاب يصدر عن أعماق القلب.. «هيهات غرّي غيري» إنها قطيعة كاملة مع النزول إلى الأهداف الصغيرة: «قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها».

ويتضمن النصّ أيضًا استشعارَ عظم المسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان، وضرورة التزوّد بالمؤونة التي تؤهله لحمل هذه الأعباء: «آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد»، والمورد هنا موقف الورود على الكامل المطلق سبحانه.

* * *

ومن كلام له عليه السلام: للسائل الشامي لَمَّا سَأَلَهُ أَ كَانَ مَسِيرُنَا إِلَى الشَّامِ بِقَضَاءٍ مِنَ اللَّهِ وقَدَرٍ بَعْدَ كَلامٍ طَوِيلٍ هَذَا مُخْتَارُهُ :

«وَيْحَكَ لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِماً وقَدَراً حَاتِماً لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ والْعِقَابُ وسَقَطَ الْوَعْدُ والْوَعِيدُ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً ونَهَاهُمْ تَحْذِيراً وكَلَّفَ يَسِيراً ولَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً وأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً ولَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً ولَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً ولَمْ يُرْسِلِ الأَنْبِيَاءَ لَعِباً ولَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً ولا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ».

والنصّ يتضمن وضع أسس ثقافية هامة لنظرة الإنسان إلى الكون والحياة والانبياء:

فالإنسان مخيّرٌ وليست حركته جبرية «بقضاء لازم وقدر حاتم»، وهذه قاعدة هامة ينطلق منها مفهوم كرامة الإنسان باعتباره المخلوق الوحيد الذي ينال درجة التخيير، وينطلق منها مفهوم المسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه في انتخاب الطريق وعدم الانسياق وراء الغريزة.

ويتضمّن أيضًا عظمة الرسول والمرسَل، فليس في مسألة النبوة لعبٌ وليس في

الكتاب المنزل عبث. بل هو من أجل الجدّ في الحياة، ولغرض الحركة نحو الله، نحو الكمال المطلق.

وفيه أيضًا إلفات النظر إلى الحكمة البالغة في خلق الكون، فليس فيه باطل، بل كل شيء قد خُلق بقدر، ووفق أصول تيسّر للإنسان حركته على الأرض نحو كماله المرسوم.

* * *

وقال عليه السلام: «**خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ**».

الحكمة هنا هي الفكرة الصحيحة الصائبة، والإمام يحثّ على أخذها حتى إذا صدرت من منافق.. وفي النصّ توجيه هام نحو الإصغاء إلى الآخر، وأخذ ما ينفع منه، ولو كان ذلك الآخر مخالفًا للمتلقي. وهذه تربية ثقافية هامة على طريق الحركة الحضارية.

إذا ضرب الإنسانُ على سمعه حصارًا، أي إذا أصرّ أن لا يسمع إلاّ من جماعته وحزبه وعشيرته فإنه بذلك يحصر حركته في أطر ضيقة، وتتحول هذه الأطر إلى طاغوت يمنعه من الحركة إلى الله ومن التكامل. وجاء هذا المفهوم ضمن تأكيد قرآني في قوله سبحانه: [وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ].

ومثل ذلك قوله عليه السلام: « **الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ** ».

* * *

وقال عليه السلام: «**قيمة كل امرئ ما يحسنه**».

والإحسان: تقديم العمل الحسن، والعمل الحسن هو العمل الجميل النافع المفيد. وقيمة الإنسان بما يقدّمه من عمل كهذا. قيمته ليست بماله وأصله ونسبه ولونه، بل ولا بدينه ومذهبه. وهذه قيمة حضارية كبرى وقف عندها الشريف الرضي معجبًا إذ قال معلقًا: «**وهي الكلمة التي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة**». هذه القيمة الحضارية هي التي صيّرت أرسطو اليوناني المعلّم الأول لدى المسلمين، وهي التي جعلت الشريف الرضي يرتبط بأبي اسحاق الصابي برباط صداقة عميقة رغم أن أبا اسحق ليس بمسلم، وجعلت الشريف يرثي صديقه بأروع قصائد الرثاء في الشعر العربي.

* * *

وقال عليه السلام: « **أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلاً لا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلا رَبَّهُ ولَا يَخَافَنَّ إِلا ذَنْبَهُ ولا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لا أَعْلَمُ ولا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ وعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ولا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لا رَأْسَ مَعَهُ ولا فِي إِيمَانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ**».

يحثّ الإمام مخاطبيه على خمسة أمور ويفتتح الخطاب بذكر أهميتها: «لو ضربتم آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً».

أن يرجوَ الإنسان ربّه .

ورفع آمال الإنسان ورجائه إلى هذا المستوى إنّما هو دفع للإنسان لأن يعلو بطموحاته إلى الكامل المطلق سبحانه.

وأن لا يخاف إلا ذنبه. والذنب إذا فهمناه في إطار المفهوم الإحيائي بأنه خطوة إلى الخلف في عملية الإحياء ومسيرة التكامل، فإن خوف الذنب يعنى خوف الوقوع في

انتكاس المسيرة الحضارية التكاملية.

وعدم الاستحياء من قوله: «لا أعلم»، يصبّ أيضًا في المفاهيم التربوية الحضارية. لأن الاستحياء من قول: «لا أعلم» ناتج عن غرور وذاتية وأنانية.. بل أيضًا عن جهل بواقع العلم، إذ مهما بلغ الإنسان في علمه يجب أن يذعن بأنه جاهل بكثير من الأمور. ومجهولات الإنسان تزداد بقدر ازدياد معلوماته.

ومثله قوله عليه السلام: «**من ترك قول: لا أدري أُصيبت مقاتله**» أي حين يترك هذا القول فإنه مضطر لأن يقول بما لا يدري فيتبين جهله، ويمقته الناس ويسقط في المجتمع (أُصيبت مقاتله).

وعدم الاستحياء من التعلّم يأتي في هذه السياق. كما أن فيه إضافة تدعو إلى طلب العلم حتى ولو كان في حالة تدعو إلى الاستحياء كالتعلم في الكبر، أو التعلّم على يد من يرى أنه دونه، أو في حالة أخرى تتطلب كسر الغرور والخروج من الذاتية.

والحثّ على الصبر مفهوم له قيمته في المنظومة الثقافية المتحضّرة، إنه الصبر على مواصلة طريق ذات الشوكة، إنه الدعوة إلى تحمّل أعباء المهمة الحضارية الموكولة إلى الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض. وهذا الصبر هو الذي يمدّ الإيمان بالحياة والحركة، كما يمدّ الرأسُ الجسدَ بالحياة والحركة.

* * *

وقال عليه السلام: « **بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَداً وأَكْثَرُ وَلَداً**».

يقول الأستاذ محمد عبده في معنى بقية السيف: «هم الذين يبقون بعد الذين قُتلوا في حفظ شرفهم ودفع الضيم عنهم وفضلوا الموت على الذل، فيكون الباقون شرفاء نجداء، فعددهم أبقى وولدهم يكون أكثر، بخلاف الأذلاء فإن مصيرهم إلى المحو والفناء».

الكلمة إذن حثّ على العيش بعزّة وكرامة مهما كانت التضحيات، وهو أساس كل

حركة حضارية في التاريخ. والمجتمع الذي يرث الفداء والتضحية من الجيل السابق يعيش في عزّة وكرامة، على عكس الذي يرث حالة الذل ممن سبقه.

* * *

وقال عليه السلام: « **رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلامِ ورُوِيَ مِنْ مَشْهَدِ الْغُلامِ** ».

جَلَدَ الغلام محبوب إنه شجاعته وإقدامه وهمّته في خوض معارك الحياة وساحات الجهاد، لكن الأحبّ منه الفكر والتدبير والتخطيط. وهو رأي الخبير صاحب التجربة (رأي الشيخ). وهذا يعني أن الأهم من الحركة هو اتجاه الحركة في طريقها الحكيم الصحيح.

* * *

وقال عليه السلام: « **مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ النَّاسِ ومَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ومَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ**»

إصلاح علاقة الإنسان مع الله في المفهوم الإحيائي يعني انشداد القلب إلى الحيّ القيوم وإزالة كل عائق من مسيرة الإنسان نحو الكامل المطلق. عندئذ تصلح علاقةُ الإنسان بالإنسان، لأن القلب حين ينشدّ إلى الله فإنه سيخلو من كل ما يعكّر صفو العلاقة بين البشر. وإصلاح أمر الآخرة يأتي أيضًا بنفس معنى إصلاح العلاقة مع الله، وعندئذ يُصلح أمر دنياه، وفق نفس القاعدة، فالساعي إلى الآخرة ساع إلى الكمال المطلق، وهذا السعي يفتح أمام الإنسان أبواب التعامل الصحيح المتعادل الإيجابي مع الدنيا.

وأن يكون الإنسان واعظًا لنفسه، فإنه يعني أن يكون متنبهًا دائمًا وحذرًا دائمًا من الوقوع في الزلات والسقوط في المزالق، أي كان محفوظًا بإذن الله تعالى.

* * *

وقال عليه السلام: « **الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ولَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ولَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ**»

الفقيه: من استوعب الرسالة وفقهها (علم أبعادها وتفاصيلها)، والفقيه الحقيقي من يفتح قلوب الناس أمام رحمة الله.. والقلوب تحيا بالأمل وتموت باليأس والقنوط.. والأمل في رحمة الله ولطفه ورأفته (رَوْحه) يدفع إلى حركة كمال نحو الله، واليأس يسدّ منافذ الإحياء.

والانتكاس في هذه الحركة التكاملية يؤدي إلى حرمان الإنسان من هذه الرحمة وتعرّضه إلى سنّة «مكر الله». فلابد أن يكون على حذر من السقوط.

* * *

وقال عليه السلام: « **إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانُ فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكَمِ**».

هذه دعوة إلى إبقاء القلوب نشطة متحركة لا تشعر بالملل ولا بالتعب. والقلب هنا هو (الشعور) الذي يشكل الطاقة المحركة في الإنسان. وعلاج هذا الملل : «طرائف الحكمة» والطريف هو الذي تنبسط إليه القلوب وتنشرح به الصدور. فهو إذن الجميل البهيج المؤثر في الشعور من الكلام.. وقد يكون المقصود هو الأدب بمعناه المعروف اليوم.

* * *

وقال عليه: «: **أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ وأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ والأَرْكَانِ**».

هذا معيار لما يجب أن يكون عليه العلم. ليس هو معلومات تكتنز ويتظاهر بها اللسان، فهذه هي الحالة المتخلفة من العلم. العلم ينبغي أن يظهر في الممارسات العملية للفرد والجماعة.

* * *

وقال عليه السلام: « لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلا وهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ ولَكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاتِ الْفِتَنِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ واعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالأَمْوَالِ والأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ والرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ وإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ولَكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ والْعِقَابُ».

هذا توجيه للاستعداد إلى خوض امتحان الحياة. فالمسيرة الحياتية فيها تقدم ونكوص، وفيها نجاح وسقوط. نجاح الإنسان بمقدار تمكنه من أن يمسك زمام غرائزه وأن لا ينساق وراء مصالحه الصغيرة، وفشله بمقدار انحداره بدوافع غريزية غير منضبطة وبضياع الأهداف الكبيرة. فهو إذن أمام (فتنة) مستمرة تظهر فيها قدرته وكفاءته لمواصلة طريقة تكامله. وهذا الامتحان فيه إبراز لعظمة الإنسان وتمييزه عن سائر الأحياء.. وما يجب أن يحذر منه الإنسان هو الامتحان الذي يفشل فيه (مضلات الفتن).

* * *

وقال عليه السلام: « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ ثُمَّ تَلا إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا (الآيَةَ) ثُمَّ قَالَ إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ وإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللَّهَ وإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ».

هذا معيار هام لمكانة الفرد في الإسلام. إنه العلم بالرسالة، لا القرابة النسبية. وهذا المعيار يرفض الأسلوب الوراثي والأسري والعشائري في تقويم الأفراد وفي أهليتهم لقيادة المجتمع. وهو الأسلوب الذي شكّل عاملاً أساسيًا في انتكاس مسيرة المجتمع الإسلامي على مرّ التاريخ.

* * *

وقال عليه السلام: « وسَمِعَ (عليه السلام) رَجُلا مِنَ الْحَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ ويَقْرَأُ فَقَالَ نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاةٍ فِي شَكٍّ ».

اليقين يحصل لدى الإنسان حين لا تتنازعه عوامل الأهواء النفسية فيما يحمل من اعتقاد وإيمان. والشك ناتج عن هذه العوامل. اليقين يحرّك ويوجّه، والشك يدع الإنسان في تردد من الحركة، وإن تحرك لا يهتدي إلى سواء السبيل.

من هنا كان النوم على يقين يستطيع بعده النائم أن يواصل حركته إلى الله، خير من صلاة في شكّ، إذ هذه الصلاة لا تربّي، ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر.